أميرة السلام

- سلمى لاجرلوف -

جرت وقائع هذه القصة لدى وصول مرجريتا، أميرة السلام إلى (ستوردجاردسبين) قرب مرتفعات كنجاللا. وكانت في طريقها إلى بلاد النرويج، حيث يحتفل بعقد قرأنها على الملك مانيوس. وكان أول من رآها امرأتان عجوزتان كانتا تجمعان الحشائش من أعالي هضبة يانعة فرمتا حمليهما وأسرعتا تنبآن القرية أن الأميرة آتية من بعيد، في طريق الغابة.

ولكن أحداً لم يرد أن يصدق العجوزين.

– ويل لعيونكن المظلمة، إنها لم تر غير ضباب المستنقع يتراقص حول جذوع أشجار الصنوبر الشقراء.

ووصل في أثر العجوزين الفتى الفحامة راسموس وكانت عيناه تبرقان وصوته يتهدج: الأميرة آتية. رأيت الأميرة تسير على مهل تحت الأمشجار، فأبشروا وأسعدوا.

وتوقف راسموس أمام ساحة القرية، حيث تجمع بعض الفلاحين يتحدثون بصوت خافت عن الحرب التي سوف تعلنها النرويج. ولما سمعوا راسموس ظنوه يهزأ بهم فهدوه بقبضاتهم: "اسكت يا ابن الدب أن كنت تحرص على الالحتفاظ بجلدك، حذار، ولا كلمة أيها الشرير".

ولكن سكوت راسموس لم يكن هينا، راح يصرخ بأعلى صوته الأميرة آتية. لقد حيتها عصافير الغابة بالأغاريد. وكان ديك العليق يتطاير أمامها فتدوى أجنحته كالصاعقة، وينزلق السنجاب لمقدمها، من قمة شجرته، إلى أسفل غصن فيها وعيناه تتقدان كالجمر وذنبه ملفوف كالضمامة زهر.

ولما سمع (بير) الحداد هذا التحدي أمسك بإذن راسموس وانثالث الكلمات صفيرا من فمه: "تقول انك رأيت الأميرة! إنها جنينة الغابات أيها الأحمق، أواه! رحماك يا إلهي، فالأميرة لن تأتي"

ورغم أن أحداً لم يرد أن يصدق النبأ فقد سرى كالنسيم بين طرفي القرية الحزينة التي خربتها الحروب وحرقت أكواخها، والتي لم يكن ليجروء أحد أن يبني فيها شيئاً جديداً، خوفاً من الحروب المقبلة. وكان أهلها يتنافرون من بين الأنقاض والمغاور بوجوه معفرة وأثمال بالية ويتجمعون حول راسموس ليسمعوا قصته.

وانبرت من بينهم العجوز سيجريد بعصاها الطويلة وصرخت بوجهه: "من يقول أن الأميرة آتية؟ أني لأعرف بما سيأتي! فقد ظللت طوال الشتاء وحيدة في كوخي أتأمل الدخان المتصاعد من المدفأة، وكان مفعما بالنذر:" صور وأشباح مكفهرة تحمل الرماح والحراب وتنبأت بأخبار الغزاة من جنود الملك مانيوس وهو يتسللون إلى أكواخنا تحت جنح الليل فنفيق على صياح الديوك الحمر، وأغاني المغيرين يحدون بأهازيج الظفر".

وسرت في الحضور وعشات الخوف والذعر: ولكن الفتى راسموس انتصب أمام العجوز وقال لها: لست أكترث لسحاب دخانك! لقد رأيت الأميرة. وكان جبينها البهي يبرق سناء وطهرا تحت تاجها الملكي.

وتلفت الجمع لمقدم رجل كان قد ظل سنين طويلة منفياً في الغابة. وكان أشبه بالوحش الضاري، تكسو جسمه الجلود ويعطي الشعر هامته ووجهه، إلا أنه كان يبتسهم ويلوح فوق رأسه غصناً أخضر، رمزاً للسلام. وتوقف أمام البيوت المهدمة والمغاور المظلمة وصرخ بملء رئتيه: "الأميرة آتيه. رأيت الأميرة".

ولما رأة المختار فولك، العجوز الحزين المقوس الظهر قال له: "عليك الأمن والسلام أيها المنفي، فما بك حاجة أن تأتينا بالأكاذيب لتلتمس العفو عنك، فها أنا أحطم الطوق الذي يثقل رأسك، فلن تعود إلى الغابة بعد".

– ولكن لماذا لا تصدقني؟ هل نسيت أن الملك آنج قد وعد بإرسال ابنته في الربيع حمامة أمن وسلام؟

ورفع إليه العجوز نظرات متعبة يائسه: "وما أدري أنا بالربيع! خريف أو ربيع، كله سواء لدينا نحن الفلاحين. فليبق الثلج في حقولنا، ولتتفجر الغيوم غيثا لا ينقطع. ولتمت البذور في الأرض فنحن لا نزرع ولا نحصد، بل ننتظر الفواجع والموت".

وسمع الجمع صوت العجوزين: "أحرمينا يا أم الإله". وتطلع الناس إلى الطريق الذي ينساب من قلب الأجمة المظلمة، وتعالى صراخهم: "تعالوا

انظروا" – ماذا؟ – "ضعوا أيديكم فوق عيونك، ارسموا شارة الصليب وتطلعوا إلى الغابة، ألا ترون لأميرة على رأس موكبها البهي. أهي الغابات يا إلهي أم الأميرة ذاتها"؟ وتراكض بعض الفتيان فقرعوا الأجراس ليتأكدوا أن الأميرة ليست من الجنيات التي يخيفهن صوت الأجراس فيركن إلى لافرار.

وتطلعت العجوز سيجريد بعيونها الحادة. فرأت في مدخل الغابة المظلمة صبية حسناء تتهادى على حصان أسود فهتفت: "يا نجمة الصبح، أيتها الزهرة اللطيفة/ أجل لست جنية الغاب. أنت ابنة الملك حقا. فلك الثناء والمجد". ورفعت عصاها فوق رأسها وخفت لاستقبال الأميرة يتبعها الأهلون. ولما وصلوا إليها حيوها قائلين:

"يا نجمة الصبح، أيتها الزهرة اللطيفة، ارفعي نقابك الحريري لنتملأ من وجهكو الصبوح".

وتدافعوا حول حصانها الأسود يتهادى في حلته الأرجوانية ويطفو على أذنيه ريش ملون، وشعر غرته جدائل تتخللها حبال من ذهب. وكان في موكب الأميرة كثير من الفرسان والسيدات النبيلات. ولكن فلاحاً مسكيناً كان يسير أمام جوادها وبيده سيف مكسور ويصرخ بلا انقطاع: "ها كم أميرة السلام. ها هي الأميرة مرجريتا فريد كوللا".

ورأت الأميرة، خلال مسيرها بين الولايات المتاخمة لبلاد النرويج، رأت الطمأنينة والفرح يغمران قلوب الناس. في كل مكان وصلته بدأ الفلاحون يغرزون سكة محاريثهم في جوف الأرَ. وأرسلت القطعان

العجفاء الهزيلة إلى المراعي. وأزدادت المعاصم والأصابع بالأساور والخواتم. والقي بالسيوف والرماح في خزائن السلاح. وتقدم الأطفال والنساء لاستقبال الأميرة، في كل أرض وطأتها، بالأزهار والرياحين وهناك، في مدخل الغابة الكبيرة، المبردة، وكان يتهافت للقائها الفلاحون فيصفون لها شقاءهم وفقرهم فلشد ما انتظروا وتعذبوا!.

وعندما وصلت فيد كولا إلى مفترق الطريق شدت اللجام وأوقفت حصانها. إنها لم تر بؤسا يماثل هذا البؤس. ان نظراتها لتتيه شاردة في سهول جرداء مقفزة وبيوت مهجورة وجماعات بائسة حزينة ترتدي الأطمار البالية. وامتلأت عيناها بالدموع. إلا أن الفلاحات قبلن يدهما وقلن لها: "إن عهد العذاب والحرمان قد شارف نهايته طالما هي قد أتت".

– لا تهتمي لأمرنا يا فريد كوللا. ولا ترثي فكري بزوجك العتيد الملك مانيوس. ليفتر ثغرك الملائكي بابتسامة المسرة والفرد، وليداعب خيالك شعره الحريري المنير.

وكانت الأميرة جاثمة فوق حصانها تذرف السخينة بينما يحاول الفلاحون إدخال العزاء إلى قلبها: "لقد مضى عهد الدموع أيتها الأميرة البهية. انظري إلى النهر الذي يجري هناك، كنجاللا المرفأ الغني بالمراكب، ينتظرك فيه الزوج السعيد. ولسوف تهزه نشوة الفرح عندما تضمك ذراعاه انظري أيتها الأميرة، لقد عرف الشعب بمجيئك، وهذه نيران الفرح تشتعل في أغالي الهضاب. أنهم يسرعون إلى ضفاف النهر، وقد تعلموا أن يهتفوا:

"فريد كوللا، هايل. هايل". ألا تسمعين أصواتهم تتماوج عبر النهر.

ولكن العزاء لم يكن ليلج قلب الأميرة.

كانت تتأمل هؤلاء المساكين في أسمالهم البالية، ضعافاً معروفين، تبدو على سمائهم مظاهر الوحشية، حتى لا يكادوا يشبهون البشر.

ورفعت الأميرة يدها تشير إلى أنها تود الكلام. وساد حولها صمت مهيب. وسمع الفلاحون والسادة، وسمع سيدات موكبها بوضوح كل كلمة قالتها: "تذكروا ما أعدكم به هنا أمام الله، أني سأعمل في سبيل السلام ما دام يجري على لساني كلام وينبض في قلبي دم". وتوقفت قليلاً كأنما هي تشعر بخطورة هذا العهد. ثم أضافت: "سأفعل هذا ولو كلفني سعادتي وفرحي".

وأشرق وجهها بمعاني الأقدام والعزم وكفت عن البكاء. ثم دفعت حصانها في الطريق الذي ينحدر إلى النهر.

وبينما هي في سيرها، رأت راعيا كان يجلس على حافة الطريق. وكان مرحا سعيدا ككلى الناس، ويود أن يقدم للأميرة أفضل ما عنده، فراح ينشد أغنية صغيرة تشيد بحب أحد ملوك الشمال لابنة إمبراطور الشرق.

وأوقفت فريد كوللا حصانها لتستمع إلى أغنية الصبي. كان يغني بصوت مرتفع نبراته واضحة حنونة: « في العالم امرأة واحدة أقضي من أجلها الليالي الطوال مسهدا. ويمنع على حبها الاستمتاع بالملاهي والملذات. هي عذراء الشرق الجميلة، ذات الشعر الخرنوبي والعيون السود، ماتيلدا ابنة

الإمبراطور. إن حبي وحنيني يتبعاني حيث مرت، في الحقل والقصر، و في ميادين القتال. ويسير أمامي الحزن وآلامي لأني لا أملك ابنة الإمبراطور.

وكانت الأميرة تستمع إلى الأغنية باهتمام فسألت الراعي الصغير: و من الذي ألف هذه الأغنية ؟

ولم يكن إلى جانب الراعي من يصده عن الجواب فقال لها فخورا: "انه الملك مانيوس، قالها في ابنة الإمبراطور ماتيلدا".

وشعرت الأميرة بوخز يدمي قلبها.

الملك مانيوس هو الذي ألف هذه الأغنية !

فما حاجتي أن اذهب إليه إذن، طالما هو يصبو إلى ابنة إمبراطور الشرق. انه لم ينظم في أغنية تترنم بها الشفاه. ليس له ذرة أب نحوي.

وسمعها الفلاحون واجمين، تدعو أفراد موكبها: أيها الفرسان الأبطال والنساء النبيلات. ارحموا قلبي يا أتباع والدي المخلصين ،ولا تذهوا بي إلى الملك مانيوس. لقد سمعتم الأغنية. انه لا يتحرق وجدا إلي. الملك مانيوس يصبو إلى ابنة الإمبراطور الجميلة.

وبينما الأميرة تتكلم كانت الجماهير تتجمع على طرفي الطريق وتهتف: "فريد كوللا. هايل، هايل".

وأسرع من مدينة كنجاللا آلاف من الناس يرددون الصدى المتضخم: «فريد كوللا. هايل، هايل».

وكانت الأميرة تبكي وتنتحب: رأيها الفرسان والسيدات النبيلات، عودوا بي، أننا نسيء إلى الملك مانيوس، إذ نضطره أن يجعل مني ملكة. لست أبغي سوى الرجوع إلى قرب والدي".

وكانت أصوات الذين تجمعوا على النهر تردد الهتاف: «فريد كوللا. هايل، هايل». وصمت فريد كوللا أذنها بيدها: "أواه، لو يلازموا الصمت. أنهم يدعونني أميرة السلام. ولكن السلام يستطيع إن يستتب بدوني. فالملك مانيوس لن يعود إلى الحرب أكراما لي فرجوعي سيسبب له الفرح".

وكان حصانها قد اقتحم له طريقا فدفعته بقوة إلى الأمام. وتساءل الذين كانوا إلى جانبها: «إلى أين تذهب»؟

وعندما رأوها تتجه إلى الغابة اندفعوا في أثرها: «أصغي إلينا أيتها الأميرة، أصغي لما تقوله هذه العجوز..

– إن رأسي يترنح تحت ثقل السنين، والحرب ستنتزع مني وحيدي.

– لماذا تصمين عنا أذنيك أيتها الأميرة. أصغي إلينا، وإلا فستغلق الأبواب وتفتح صناديق الأسلحة. وينتزع الفلاحون السكة – من الأرض.

– فريد كوللا. فريد كوللا، لن نجرؤ على بذر الحنطة.

– فريد كوللا، لن تستطيع ابنتنا إن تعقد قرانها هذه السنة أيضا.

وعندما تحترق مزارعنا ستصنع النساء العجوزات دائرة خزي ولعنة يحفرون فيها اسمك. فكري بنا أيتها الأميرة فنحن هالكون. –

وتدافع أمامها الجمع: على أجسادنا! على أجسادنا تمرين. لا، لن تعودي. هل نسيت العهد الذي نذرته قبل هنيهة؟ ألا تسمعين كيف هتفون لك على الشاطئ الآخر ؟

وكان بعضهم يقبل يديها والبعض الآخر يمسك بلجام حصانها. ورأت أنهم لا يريدون ما سوءا. حتى الخطرين من رجال الغابة. والمنفيين الذين منحتهم العفو، وكانوا قد انتفضوا حرابهم، اندفعوا يقبلون طرف ردائها.

ولكنها رفعت السوط صارخة: " دعوني أمر".

وتراجع الفلاحون مبهوتين، وأدركوا مبلغ ألمها. ولم يجرؤا على التماس رحمتها: «لتكن مشيئتك أيتها الأميرة فالطريق مفتوح أمامك".

وتوقفت الأميرة عن السير وظلت بلا حراك برهة تتطلع بعيون ملؤها الأسى والحنين إلى أشجار الهضاب، يرتسم خيالها على صفحة الأفق ويتراءى لها، وراء الربى، المقر الوالدي حيث تود إن تتوارى وتختبئ، كما يفر الحيوان الجريح ليأوي إلى أجمته.

وظلت على هذا فترة طويلة، نظراتها مثبتة في الأفق، ودموعها تنهمر واحدة بعد أخرى. ثم أدارت رأس حصانها بلطف وراحت تهبط النهر.

لم يكن ثمة من يضطرها إلى ذلك. وكانت تعلم أنها غير مرغوب فيها هناك ولكن حب السلام كان يتقد في صدرها. بدأت تسير على مهل. وراح الشعب يتبعها بلا هتاف ولا صخب. لم تعد تتقدم باندفاعها وحماسها السابق،

وكانوا يتهامسون من حولها "ولندعها هادئة ".. ولم يتصاعد بالهتاف لها صوت.

وعندما اجتازت النهر، على الطرف الكبير، نزلت عن حصانها وانحنت فوق الماء الجاري، وراحت تناجي نفسها:

"أترين هذا الماء يا فريد كوللا، انه يسير إلى البحر بقوة لا تدفع فلا يجوز للأمواج إن تتردد. يجب أن ترمي بنفسها في أحضان الخضم العظيم، حتى إن بدا لها مرا مخيفا. فعبثا يلقى النهر، في مسيره الطويل، الخلجان اللطيفة الآمنة، تحف بها الإقصاب المرتعشة. انه لا يستطيع الصمود إلى نبعه الهادئ، هناك في أحضان الغابة. يجب إن يسير إلى الأمام دائما، هذا قدره. يجب إن تكوني يا فريد كوللا الموجة اللطيفة التي تذوب في ضجة هذا العالم المضطرب لتخفف من مرارته وآلمه.

وكان الفرسان النبلاء قد غادروا كنجاللا سراعا إلى النهر للقاء فريد كوللا.

– ارفعي عينيك يا فريد كوللا. تطلعي إلى الملك مانيوس، فعلى خوذته يربض الأسد المذهب، رمز الملك. الأسد يخفق بين ثنايا رايته و يبرق على ثوبه الحريري الأحمر. وهو نفسه أسد الشمال. انظري إلى شعره الذهبي المرسل على كتفيه. انظري إلى زهوه. الغبار يتطاير أمامه والأرض ترتج للقياه. وظله الأسود يسير خيبة فوق الحقول في ظلمة المساء الزاحف.

– ارفعي عينيك أيتها العذراء وابسمي لزوجك.

ابعدي عنك هذا الخاطر الحزين، أن ترمي بنفسك تحت الحوافر المتطايرة، وتستقبلي الموت.